شعرية السّرد والمتخيّل النقيض
في رواية (تحت سماء كوبنهاكن) لـ حوراء النداوي

م. د. محمد قاسم لعيبي
جامعة بغداد / كلية التربية / ابن رشد

المقدمة

لقد تميز الإبداع في العراق بمجال الرواية بنشاط حثيث في السنوات الأخيرة نهض به روائيون بعضهم تعود به الكتابة في المجال الإبداعي إلى مرحلة السبعينيات وحتى الستينيات من القرن المنصرم ، وتزامنت هذه الحركة الإبداعية مع حركة نقدية أصبح ينهض بأعبائها النقاد في الصحف والمجلات ولا سيما من الجامعيين المختصين في سبيل إرساء تقاليد في النقد تخص الأدب السردي في العراق . ولئن انصرف هذا الجهد إلى أعمال آلة النقد في بعض النصوص من ناحية ، والتوثيق للحركة الإبداعية في العراق في سبيل إرساء منظومة ثقافية إبداعية وفكرية متماسكة ومتجانسة من ناحية ثانية، فإن الرواية ما تزال بحاجة إلى المزيد من البحث في أشكالها ومضامينها بوصفها سمة إبداعية من سمات هذا العصر .

لقد اخترنا أن نخص رواية حديثة العهد بالصدور نسبياً تحمل عنوان (تحت سماء كوبنهاغن) ، بدراسة للوقوف من زاوية حضارية على مكونات السّرد والمتخيل النقيض، ولا سيما قضية(الهوية والانتماء) من خلال القص وأساليب الكتابة فيها . وإن كانت هذه القضية قديمة في الطرح فإنها فيما نزعم تستحق إعادة البحث ؛ لأن وقعها ازداد تعاظماً في العقدين الأخرين من القرن العشرين والمرحلة اللاحقة.

إن الذي حفزنا على دراسة هذه الرواية من هذه الزاوية هو عنوانها أولاً، وإلحاح الكاتبة في أكثر من موضع فيها على أن كتابتها تشهد على عصرها وزمانها أصدق شهادة ، وتهدف إلى النبش في خفايا الزمن للبوح بأسراره ، وهذا الوقت الذي نقصده هو هذا الزمان الذي انماز بأحداث عالمية كبيرة وانطوى على تحولات اجتماعية عميقة أدت إلى ظهور موجة من الإبداع، ولا سيما في مجال الرواية على غرار هذه الرواية .

وعليه يبدو من المنطقي أن تنطلق الدراسة من الفرضيات الآتية : كيف طرح سؤال الهوية في إطار علاقتها بواقع الحياة في المهجر ؟ وهل هي رواية من قبيل الأدب الذي تكون بطانته أحداثاً

اجتماعية معلومة ووقائع تاريخية فيقتضي ذلك منا أن نراجع التصور السائد القائل بأن العمل السردي مجرد نسيج خيال ومحض افتراء ؟ وبالتوازي مع هذا إلى أي مدى سترتقي هذه الرواية من الواقعي إلى المتخيل ؟ وما نصيب الإيحاء فيها من التقرير ؟ تلك بعض الأسئلة التي سنسعى إلى التماس الإجابة عنها وعن سواها من خلال فحص مكونات السرد والمتخيل النقيض للرواية .

عنوان الرواية وفاعلية الفضاء السردي

إن عنوان الرواية هو العتبة الكبرى ، منه نلج إلى فضاء الفعل السردي . فهو الذي يلخص كل ما تفرق، ويجمع كل ما تشتت، ويشوق كل من أراد أن يقتحم متن النص . إنه يتمتع بفاعلية الإيحاء والقدرة على اختزال الدلالات المختلفة، لقد تنبه المختصون في مجال السرد إلى أهمية العنوان عبر مراحل تطوره المختلفة ، فالتطور الحاصل في تاريخ العنوان جعله يستفيق من غفوته ، ويتمرد على إهماله لسنوات طويلة ، وينهض ثانية من رماده ، الذي حجبه عن فاعليته.(1)

إن الدلالة اللغوية والايحائية للعنوان تفهم من سياقه، وعنوان روايتنا يتكون من : ظرف المكان والمضاف والمضاف إليه ، فالعنوان الذي جاء على شكل جملة ظرفية ، يوحي إلى دلالة مكثفة ، ومختزلة للنص عبر بعدي المكان والزمان ، فالتحتية تظل مبهمة وغامضة عند القارىء ، أهي التحتية التي تشير الى الرخاء والسعادة والاطمئنان ، أم التحتية الدالة على الضغط المخيم على الشخصيات والأحداث، غير أن هذا الارباك سرعان مايزول عندما يفهم القارىء المتفحص أن التحتية تشير الى الضعف وعدم القدرة إذا ما تبادر الى الذهن ثنائية (تحت / فوق) ، عندها سيتضح أن(**سماء كوبنهاكن**) هي سماء أخرى تلقي بضلالها على الشعور الجمعي للشخصيات في المهجر ، إذ تشعر تحت هذا الظرف بالضياع وعدم الاستقرار والخوف من المجهول وبالتالي تبرز قضية البحث عن الهوية الانتماء بقوة ، وهنا نستنتج أن العنوان كان أمراً مقصوداً من الكاتبة ، لتقريب القارىء من النص وانفتاحه عليه(2)

واللافت للنظر أن العبارات الدالة على الزمن قد تكررت بكثافة في الرواية ، ففي المقطع الآتي يطالعنا قول الرواي : ((**الأيام التي كانت رتيبة مملة كرتابة أوربا التي أقطنها ، وكنت أكاد أعرف ما سيحدث في كل دقيقة منها قبل أن يقع حدوثه**))(3)0، فالزمان والمكان بمفهومه الحضاري هو ما يشغل الكاتبة في روايتها ، وهو فضاء ذو أبعاد سياسية، واجتماعية، وثقافية ويمكن تلخيص معناه في وعيها به على النحو الآتي : ((الزمان والمكان... لا يصير ذا معنى ووجود ذهني إلا من خلال وعي الإنسان به ، أي من خلال ارتباطه بالإنسان وأعماله وتاريخه وحياته وفكره))(4).

وفي هذه الرواية تتقلص المسافات الفاصلة إلى حد كبير بين زمن الأحداث وزمن الكتابة وبالتالي زمن النشر . ويتضح من التواريخ التي ذيلت بها الكاتبة روايتها أنها كتبت في المدة الفاصلة بين سنة

2009و 2010 ويتضح أيضاً من خلال ربط زمن أحداث الرواية بالمرجعين الواقعي والتاريخي أن معظم هذه الأحداث تتنزل في العقدين الأخيرين من القرن العشرين والمرحلة اللاحقة . فضلاً عن ذلك كله لا تفصل بين كتابة الرواية وتاريخ النشر ومن ثم بداية زمن القراءة إلا أشهر قليلة .

فالقارىء حينئذ يتعامل مع رواية طازجة ، كأنها الأخبار التي تأتي على عجل وبشكل برقي لتتحدث عن الزمن الحاف بإنشائها ، وتبرز العلاقة القائمة بينها ومعطيات هذا الزمان من النواحي السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية فهذه الرواية في جوهرها أخبار عن هذا الزمان وإيقاع من إيقاعات هذا العصر ، والوجه في ذلك أن الكاتبة واكبت أحداثا جوهرية فانتقت منها لحظات تعبر عن الأزمات والتجارب الحرجة فاصطنعت منها مادة لأحداث روايتها التي أخرجتها في أشكال فنية عدة .

فهذه الرواية مشبعة بالمضامين الدالة لأنها تتعلق بكشف المخبأ وفضح المستور في الزمان و الزمان المقصود ((هو الحاضر ... هو العصر الذي نعيشه أي هو زماننا في نهاية هذا القرن . والكتابة منغرسة في الواقع ، متجذرة في أعماقه تعكس نظرة الكاتب إليه))(5)

وهذا النوع من الكتابة يحمل مستوى من مستويات التطلع لأنه يمثل التزاماً عند الكاتبة ، فهذه الرواية قد غلّبت المضمون على الشكل ، و هي تحمّل أصحابها رسالة فكرية واضحة المواقف . ومن ثم فما هي الرسائل والمواقف التي أرادت الكاتبة تبليغها ؟ وكيف طرحت سؤال الهوية والموقف من المهجر عندما توسلت بالفعل السردي من خلال أحداث الرواية ؟

شخصية المرأة ودلالاتها الحضارية

إن الرواية ضنينة بالشخصيات إذ تقتصر على عدد محدود منها ، ولعل أبرز الشخصيات التي تطالع القارىء هي المرأة التي تتجسد في صور مختلفة ومتناقضة أحياناً ، وعليه سنسعى إلى تبيّن ملامحها ودلالاتها .

فالصنف الأول من النساء الذي تقدمه الرواية أقرب ما تكون في تجلّيها إلى الأنموذج الفني ، فإذا بها تقدمها لنا بصفات لا تخلو من الكارزما التي تشد الآخرين إليها، فهي الشابة ذات الأصول العراقية التي ولدت في كوبنهاكن – الدنمارك – ، من أبويين عربيين عراقيين ، هاجرا إليها بسبب الظروف الصعبة ،التي طالما مثل لها تواجدها في المهجر إشكالية ملازمة لجميع مراحل حياتها ، إنها إشكالية (الهوية والإنتماء) إذ تحاول كتابة رواية عن الحياة في المهجر مستعينة بأحد المهاجرين العرب لترجمتها إلى العربية ، فيكون الأنترنت وعالمه الساحر وسيلة تواصلهما لمراحل طويلة من أحداث الرواية، يصف الراوي شخصيتها بعد أن أقنعته بترجمة روايتها على النحو الآتي : ((**لا ريب أن الفتاة نجحت بالفعل في إثارة فضولي إلى درجة قررت فيها أن أترجم لها ما أرادت**))(6)

وفي موضع آخر من الرواية يتجسد بوضوح ماتعانيه هذه الشخصية ولا سيما في قضية الهوية والانتماء ، إذ تروي لنا آثار رحلتها مع العائلة إلى سوريا التي نقلتها من حياة إلى أخرى ، إذ تكتشف فجأة أن لها جذوراً في أرض أخرى وعالم آخر عبر مواقف وأحداث مختلفة، تقول : ((**لو لاها لما كنت عرفت كيف يبدو أصلي خالصاً . ولو لاها كنت تركت نفسي لحياتي المهجّنة ، تلك المزدوجة التي أراها على محيّا أقراني من المهاجرين الذين تربو هنا**)) (7)0وعلى هذا النحو تولى الكلام رسم شخصية هذه المرأة (هدى) بالكلمات بدلاً من الألوان والخطوط التي يستعملها الرسام .وقد تكون هذه المرأة من ناحية أخرى تشكيلاً لغوياً لما يمكن أن يعرف من حياة المغتربين، ولا سيما الذين ولدو في أرض المهجر ليكتشفوا فيما بعد تشضي هويتهم بين الوطن الأصلي والمهجر . عموماً نهضت هذه المرأة بدور حيوي في الرواية عندما نجحت في تحريك الماء الراكد ودق أجراس الخطر فيما يخص أوضاع الكثير من العراقيين في الهجر ، إذ تؤكد الحاجة إلى ترسيخ القيم العربية ألأصيلة حفاظاً على الهوية الحقيقية للمهاجرين ، هكذا هو شأن الفن الرفيع حين يصبح قادراً على التهذيب والتثقيف .

والمرأة أيضاً هي الأنثى الأجنبية (الدنماركية) التي تطل على القارىء من خلال علاقة عاطفية غير متكافاة مع أحد الشبان العراقيين في المهجر (عماد) ، ففي هذه العلاقة العاطفية تظهر المرأة الأجنبية التي ترضى لنفسها أن تساكن شاباً عربياً هو أحد تلاميذها في مدرسة اللغة التي تعمل فيها بصفة معلمة للغة الدنماركية للأجانب ، وقد أخذ منها العمر مأخذه ، إذ يلجأ إليها (عماد) لتثخن فيه الجراح وتزيد من توقد الشعور بالحرمان الذي رافقه منذ أمد بعيد حينما تركته العائلة في العراق عند مغادرتها إلى المهجر ، وفي هذه الأجواء نتعرف على (هيلدا) من خلال الحوار بين (هدى) أخت عماد وإحدى صديقاته العربيات :

((– **منذ تعرفت إليه وهو يسكن عند تلك الأخرى . إنه في السادسة والعشرين . وما تقدمه " هيلدا" ، لا أقدمه أنا**))(8). وفي موضع آخر من الحوار الطويل نسبياً تظهر المراة الأجنبية على النحو الآتي :

((– **تعرفين ذلك النوع من الدنماركيات اللواتي لا أمل لهن بإيجاد رفيق ! إنها منهن**))(9) . ومثل هذا القالب التعبيري الذي أدخل عليه السارد بعض من مواقفه الشخصية ، يعد أحد الروافد السردية التي كثرت فيها المواقف فتغذت بعض جذورها من الرصيد الثقافي الشعبي العام .وعلى هذا النحو كانت ترسم لنا شخصية المرأة الأجنبية في الرواية . يقول الراوي عند وصفه لصورة (هيلد) :

((**كانت تبتسم ابتسامة واسعة ومرنة ... نهداها المكوران ، وخداها الممتلئان ،وشفتاها السمينتان ، وخصرها النحيل الملتوي بخفة ليبرز النهدين أكثر ، كل هذا كان يتقافز في الصورة من شدة ما بدا عليها من حيوية ساحرة .. وبدت في سن أصغر بكثير مما توقعت**))(10).فالأنثى هنا منتج يستخدم

سلاح الإغواء وهو شكل قديم وخبيث لترويج نمط عيشه غير عابىء بقدرة الآخرين على استيعاب وتبني فلسفته الاستهلاكية التي تنقلب إلى وبال على الطرف الآخر كما هو الحال مع (عماد) الذي ينتبه إلى خطورة هذه المرأة فيتركها ليتزوج من عراقية مقيمة في الدنمارك ، إنه لقاء حضاري بين ثقافتين مختلفتين قد تلتقيان في بعض المسارب والاتجاهات ،إلا أنهما تفضلان الاحتفاظ بخصوصيتها مستقلة في الأعم الأغلب .

لقد تقدم الحديث عن صنف أول من النساء ذي مرجعية فنية ذهنية تجسد من خلال شخصية (هدى)، وصنف ثان ذي مرجعية حضارية تجسد من خلال الأنثى الأجنبية(هيلدا) ، وننتهي الآن إلى صنف ثالث ذي مرجعية اجتماعية . فمثل هذه الشخصيات ((لم توجد فعلاً خارج القصة ، وإنما هي ممكنة الوجود ، باعتبار أن بعض سماتها وملامحها وأفعالها... مستقاة من مجتمع ذي وجود حقيقي))(11). وهذه المرأة نعني بها الزوجة المخلصة التي لاهم لها سوى الحفاظ على الحياة الزوجية.

فهذه زوجة (رافد) خصت بتسمية (شذى) وهو اختيار معجمي في النص يرتبط ثقافياً برؤية اجتماعية تؤسس لطبيعة العلاقة الزوجية على وفق منظور ما تستطيع أن توفر المرأة من معطيات نجاح العلاقة الزوجية ولاسيما إذا عرفنا أنها من العراقيات اللآتي ولدن في المهجر . فهذه المرأة تقوم بواجباتها المنزلية على أحسن وجه : توفر الأجواء المناسبة للزوج داخل البيت وتحاول أن تقدم كل مالديها من خبرة في المطبخ وإعداد الطعام ، فضلاً عن محاولاتها المستمرة لإشباع رغبات زوجها العاطفية عبر اللجوء إلى الرومانسية بين الحين والآخر ، إنها امراة مكافحة تحاول جهدها أن تعيش في أسرة سعيدة ، يقول الزوج : ((**زوجتي إمراة ذكية ، سرعان ماوجهت نحوي كل ذكائها لينحسر شيئاً فشيئاً عن الكثير من الأمور الحياتية الأخرى ويسلط الضوء عليّ وحدي**)) (12).

غير أن منطق المقارنة يقود الزوج إلى الموازنة بين المرأة الأنموذج التي يسعى إليها والمرأة المخلصة التي لا هم لها سوى العيش بسعادة واستقرار ، فيقول : ((**اكتشفت بالطريقة العملية والقاسية جداً أن زوجتي ليست من أولئك اللواتي يثرن اهتمامي دائماً .. لم تعد شذى تغري فضولي مذ بدأت أكتشف أنها مسطحة أكثر من اللازم**))(13). وعلى هذا النحو كان الزوج يعبر عن خيبة أمله في الموجود بإضافة حس التعاطف ، والتوق إلى المنشود بإضافة حس الدهشة والاستغراب، يقول: ((**فكيف أتقبل هؤلاء اللواتي تم تهجينهن عبر سنين الغربة ؟! إنهن يثرن اشمئزازي ، مثل شاي وضع فيه ملح .. ولدهشتي الشديدة أجد نفسي أتزوج واحدة منهن ، ثم أنجذب لأخرى**))(14).

البحث عن الهوية

تبدو مواقف أبطال هذه الرواية متذبذبة في النظر إلى المهجر بالخصوص . فهم منه في آن موزّعون بين الرغبة والرهبة وإن كان شعور الرعب وتضخيم الخيال السلبي عنه أعم وأظهر . فهؤلاء الأبطال كانوا لا يقدرون على ما يبدون من نفور علني أو ضمني من المهجر على الاستغناء عنه ولا على إخفاء توقهم إلى الاقتراب منه للتعرف عليه وإن عن بعد بوساطة الصوت والصورة . وهي الوسائل التي عمقت حتمية اللقاء بالآخر في العصر الحديث .

ففي معرض حديث البطلة (هدى) عن مدى معرفة العرب بالدنمارك ، بعد أن تجزم أن معرفتهم لا تتعدى العلم بأنها تقدم لهم منتجات الألبان ودعاية زبدة " لورباك" ، " زبدة الرفاهية في الدنمارك " كل ذلك بوساطة الإعلان التلفزيوني الذي يبدو أنه شكل مرحلة مبكرة في البحث عن الهوية، تقول : ((**ذلك الإعلان كنت أحس بالفرح حين يصدف أن أشاهده ، وأنا أغالب الملل الذي يصيبني من الفضائيات العربية ... وأبتسم بسعادة ، لكأنه لا يعلن عن زبدة فحسب ،ويبدو لي وكأنه يعلن عني .. عن وجودي في هذا البلد ... هكذا يعلن عني ..هدى محمد عراقية من الدنمارك، أو دنماركية من العراق.. لا أعلم الترتيب الصحيح حقا**)) (15).

فهذا التقديم للدنمارك يجعله في قمة الإغراء (الألوان ، والرفاهية ، والتقدم على مختلف المستويات...) ومن ثم تقع هدى فريسة سهلة في المقارنات بين صور الفضائيات العربية المملة وصورة الإعلان عن منتوجات دنماركية . وهي المقارنات التي نكأت في نفسها جراح الحسرات، ذلك أن واقع هدى مضن إذا قيس على تلك الصور التي يبدو فيها الدنمارك غارقاً في النعيم ، فتلك الومضة الإعلانية عن منتجات الألبان الدنماركية ولّدت الأسئلة المرّة الآتية الموجهة للعرب :

((**هل تخيّلتم من قبل عدد أبناء جلدتكم هنا ؟**

هل أثارت اهتمامكم الأسباب التي حدت بنا على المجيء إلى هنا ؟)) (16).

لتصبح على قناعة تامة مفادها أن المواطن الأصلي أفضل بينما هي في جحيم واقعه يشقى فلا يحصل على شيء ومن ثم تمازجت في نفسها مشاعر المتعة بمشاعر الحسرة والغبن فانبرى الراوي في مواضع عدة يشخص شقاء الشخصيات العربية في المهجر(الدنمارك).

وفي موضع آخر من الرواية نتعرف على لحظة اكتشاف(هدى)حقيقة أنها أجنبية عن الدنمارك مختلفة عنه تمام الاختلاف، تقول : ((**جاء اكتشافي لأجنبيتي بطريقة انسيابية ، ففهمت دون أن أذكر متى وكيف ، أن هذه الأرض ليست بأرضي ، بل أنهم هم أصحاب شبه الجزيرة الصغيرة هذه .. أصحاب الأرض المنبسطة والشوارع النظيفة شبه الخالية من البشر .. سكان العاصمة الصغيرة التي يعد تيه المرء فيها نكتة ، واستقامته مبعث سخرية ، وغربته عن نفسه أمراً محتوماً**)) (17) فهنا

تكتمل صورة المعاناة من خلال تتشخيص هدى أسباب الغربة عن الوطن وبالتالي الغربة عن النفس ، إذ تعمد إلى البحث عن هويتها الحقيقية . فتشكيل الهويات الثقافية رهين بظهور وعي لدى جماعة ما بخصوصيتها من جهة وباختلافها من جهة أخرى ، ((فالهوية تولد من إدراك الاختلاف))(18)

وعلى هذا النحو تناقش الروايةمسائل هامة من مثل : كيف يمكن أن يكون الحوار والتواصل بالآخر في غياب التوازن والتكافؤ ؟ بل هل من سبيل إلى هذا التكافؤ بين عالم الأجنبي المثالي النابض بالحياة وعالم المهاجرين المشحون بالمتاعب ؟ والظاهر أن فكرة صعوبة اللقاء بين الأضداد أثيرة وفاشية في مجمل صفحات الرواية . فحتى تلك التجربة التي عاشتها(هدى) أيام الطفولة مع الدنماركيين في الروضة تنتهي على نحو محزن عندما يعمد (كلاوس) زميلها في الروضة إلى معاملتها بجفاء مستتر أو معلن ويقابل انكبابها عليه بترفع ولا مبالاة ، لتتجسد رؤية حضارية تنص على أن الدنماركي يبدو في منتهى الجمال وإقبال على الحياة وهو على بعد ، وفي المقابل في منتهى القبح وهو على القرب ، وهو الأمر الذي يعد عاملاً محفزاً للشعور الذاتي لمسألة البحث الوعي بالهوية ، فالوعي بالهوية ((إنما يكون، أو على الأقل يتبلور ويتعمق ، من خلال الدخول في علاقة اختلاف وتغاير ونزاع مع آخر معين)) (19)

الكتابة بين الهوية وعتبة النص

_ وضفت كاتبة الرواية في إحدى عتبات النص ، الشعر العربي فهي تعتمد في تصدير روايتها اقتباساً من إحدى قصائد (المتنبي) المعروفة ، على النحو الآتي :

((نحن أدرى وقد سألنا بنجد
أطويل طريقنا أم يطول
و كثير من السؤال اشتياق
و كثير من ردّه تعليل
الشاعر العراقي العظيم
أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبّي))(20)

فهذا وجه من وجوه التناص بين نصوص(المتنبي) ونص الرواية المصدر إليها ، ولكن خصوصية الكتابة فيها تعتمد على طريقة واحدة تتمثل في اقتباس شعر المتنبي في البداية ثم التعليق عليه في النهاية قصد خلقه على نحو جديد ليتحمل قضايا إنسانية تتصل بالواقع الراهن .

فهذه الرواية تكشف دون لبس عن تحمس كبير للهوية الثقافية والحضارية . ولعل أبرز معلم من معالم هذه الهوية هي اللغة العربية . فقد افتتحت الكاتبة بشعر المتنبي انطلاقاً من القول المعروف(الشعر ديوان العرب) ، معلقة عليه بصيغة جعلت من هذا الشعر العربي بذرة أنبتت شجرة مثمرة ألقت

بضلالها على معظم صفحات الرواية ، لتقول البطلة : ((**ثم بدأت لغتي العربية تطاردني ، تلاحقني بمفرداتها ، ولم أكن أجاهد تعلمها .. ولم أكن أنفر منها. كل ما في الأمر أنها انسابت معي في حياتي وبدأت تتطور شيئاً فشيئاً كما تتطور أعضاء جسدي فتكبر ، وكبرت هي أيضاً معي**)) (21) .

((إن مفتاح الدخول إلى الحياة الاجتماعية وكسر جدران العزلة، إنما يكون باللغة . فهي وسيلة نقل الأفكار ووعاء التعبير عنها))0(22) لذا كان التحدي الأول الذي يواجه المغتربين هو عقبة التمكن من الجمع بين لغتين ، اللغة الأم الأصلية ولغة المهجر . والواضح أن الكاتبة تشير بتلك الثمار إلى روايتها بوصفها خير لقاح فيما تتصور يحمي من أمراض الغربة والمهجر .

إن أسلوب الكتابة في الرواية يظهر علاقة حميمة مع اللغة العربية ومستعملها إلى الحد الذي يجوز فيه عدّ لغة الضاد الفاعل الأكبر، فالكاتبة تحاورها وتلاينها وتقودها وتنقاد إليها وتتخذ منها حصناً أخيراً يحمي القارىء من غوائل هذا الزمان فهي في اختيار المفردات حريصة على تحاشي العبارت الدخيلة من لغات أخرى وهذ النوع من العبارات قليل يكاد ينحصر في المفردات الآتية : (الرسائل الألكترونية ، الأنترنت ،الماسنجر، الجينز ، تي شيرت)

ويبلغ التعلّق في اللغة العربية بالكاتبة مبلغاً عظيماً فإذا هي لا تتردد تحرير جمل تعكس حماساً طفولياً للغة التي نشأت بعيدة عنها إلى حد ما فوهبتها هويتها ، ليحلو لها أن تحرر كما لو كانت طفلة موهوبة في الإنشاء العربي فقرات سردية أو وصفية لإظهار الحذق والتفوق مثلما في المقطع الآتي : ((**رفضني كل من كنت اعتقدت بأنني أنتمي إليه . فإذا كنت أنتمي على الدنمارك فلقد رفضتني مسبقاً ، وإذا كان انتمائي إلى العراق فها هو الآخر يرفضني بقسوة أكبر، كلاهما لا يحبذني ، فلست ذات أهمية قصوى تبعث على الاستزادة مني**)) (23).

وكأننا بالكاتبة لا تجد أحياناً من ملاذ غير اللغة العربية فتلجأ إليها وفيها تجد المتعة ، فتعبث بها عبثاً يؤدي إلى إنشاء جمل تراها جميلة الوقع غير أنها في النهاية يمكن أن تشكل خير نماذج يستشهد بها في دروس اللغة العربية فهي تقول في تصوير حال غربتها ((**لم أكن طبيعية . ولكنني أيضاً لم أكن أعرف أني لست طبيعية .. مثل أعمى ولد لا يدري ما تعنيه حاسة النظر ، ولم يسمع عنها قبل أن يبدأوا بتهيئته للتواصل بطريقة فريدة تخص من هم مثله فقط**)) (24)

ويظهر التحمس للهوية والدفاع عنها عبر الالتحام بالواقع إلى الحد الذي تبدو فيه الرواية شفافة لا يكاد الواقع اللغوي فيها يعدل أو يحجب الواقع المادي وكأن الكاتبة آلت على نفسها عن طريق الرواة الذين اصطنعتهم ألا تتحدث أو تفكر إلا على نحو واضح يفهمه الخاص والعام . ففي الغالب يسرد الراوي الحدث أو يصف المشهد كما لو كان يحادث صديقاً له في البيت أو في المقهى . حديثاً يتسم بالوضوح والعفوية والتشبع بروح الوطن وثقافته . فهو يقول في وصف يوم تعرف والدها على

أمها ((**في يوم من أيام صيف سنة 1972 كان أبي يقف وحيداً في محل جدي لبيع الأجهزة الكهربائية حيث دخلت عليه أمي ، "نادية" . دخلت فجأة .. ، وقالت له وكلماتها السريعة تتيه مع زفراتها وارتباكها :**

- **أرجوك ، أريد أن أختبىء عندك .**))(25)

أو تقول مثلما يقول ربات البيوت في العراق على لسان أمها ((**هدى شسويتي ؟**)) .أو في وصف بنات إحدى العائلات المهاجرة ((**قمة في الأدب**))(26).

وتظهر الوشائج التي تشد الرواية إلى واقع الحياة من خلال المساعدات السردية في المقالات الشفوية الشعبية من مثل الأمثال والتعابير الشائعة، ومنها : ((**راحة البال هذه لم تكتب لنا نحن العراقيين**)) (27) و ((**أقطع ذراعي إن لم يكن بعثياً**))(28) و ((**أي كحل ، يامعود .. يسحرني جمالها فلا أكاد أركز**))(29) و ((**أمي تقول إن العراقي الحق يشرب الشاي فقط ، و لا مشروب آخر سواه يعوّضه عنه**))(30)

الكتابة والمرجع

الملاحظ على هذه الرواية ارتباطها الدائم بما طرأ من أحداث على المستويين الوطني والعالمي. فالأحداث التي تبتدع من عدم قليلة نسبياً إذا ما قورنت بميلها إلى تسجيل الأحداث الاجتماعية والسياسية التي أفضت إلى تحولات عميقة وطنياً وعالمياً من مثل الحصار الاقتصادي على العراق إبان تسعينيات القرن الماضي ،وتزايد أعداد المهاجرين خارج العراق بسبب مواقف السلطة الحاكمة آنذاك ، و حرب الخليج الأولى والثانية .

ولن يجد القارىء صعوبة تذكر في التقطن على أن الرواية ترتبط من حيث الأحداث في بعض مفاصلها بمرحلة نهاية الثمانينيات من القرن الماضي وما تلاها وهي تعكس اختيار الكاتبة في تحويل الأحداث المعاصرة إلى أحداث روائية ، غير أن السمة الغالبة على هذه الرواية هي التصريح حتى تكاد أن تتحول إلى وثيقة عما حدث أو إلى تقرير صحفي أحياناً عن طبيعة معاناة العراقيين في المهجر وطرح سؤال الهوية والانتماء بقوة ،فتحاول أن تذرو برياح الكلام ما ترسب من غبار الحقائق ومن ثم فدلالة عنوان الرواية تظل متصلة بالزمان والمكان في نسبية ، محيلة على الواقع بتعقده . وفي الأحداث عبارات تؤكد ذلك التي تتنزل ضمن فضاء مرجعي محدد هو ظروف العراق في مرحلة التسعينيات من القرن الماضي .

ففي معرض تقديم معاناة العراقيين في المهجر وحنينهم إلى وطنهم العراق نطلع على هذا الحوار بين (هدى، ورافد)

: ((**قلت لهدى :**

- **ليتني أصلاً استحق أن أكون ابناً لأي من النهرين .**

نظرت إلي لبرهة وهي تبتسم بقلق ، وخيّل الي أن في نبرتها شيئاً من السخرية حين سألت :

- **إذا كانت أرض العراق لا تستحق المغادرة ، لماذا إذن تتركونها ؟**

ثبت نظرة لائمة على وجهها وأنا أقول بهدوء :

- **نحن العراقيين بطبعنا شعب لا يحبذ الهجرة .. لكن أرضنا كانت قد اتخمت بالدماء .))**(31)

ومن ثم بدت بعض المقاطع السردية منذ البداية شبيهة بالكتابة الصحفية غير المحايدة لأن الراوي نهض فيها إلى جانب نقل الأحداث بوظيفتين مضافتين هما : الوظيفة الآيديولوجية والوظيفة التفسيرية .

لقد توخى الراوي في هذه الرواية سبيل النقل المباشر للأحداث الشبيهة بطريقة الروبرتاج في نقل وقائع هروب عائلة (هدى)من العراق من دون أخيها (عماد) وتأثر هذا النقل بشخصية (هدى) التي لم تتردد في التفسير والتوضيح على ما تعودت في واقعها على أرض المهجر ((**تركته أمي في بغداد خوفاً عليه من طريقها الذي سلكته مع أبي عبر جبال في شمال العراق فراراً من العراق بأسره، ليتبعا في ما بعد طريق الهجرة الطويل .. قلبتهم أيادي عدة دول حتى استقرا في الدنمارك**))(32).

وينقل لنا الراوي الأغاني . وهي نوعان : الأغاني العراقية لمرحلة السبعينيات من القرن الماضي، والأغاني الأجنبية . إن الأغنيات الواردة في الرواية تعابير وجيزة إيقاعية ، فهي خطاب داخل خطاب أو أصوات تتسلل إلى النص من الخارج فتأتلف مع الأصوات الداخلية للنص . فالأغنيات تمتلك خصوصية النوع الأدبي – ضمن نوع أدبي أكبر – الرواية . وعليه فبنية هذه النصوص بنية تعتمد بلاغة الإيجاز والآيديولوجيا وهي تفسح المجال للسرد الروائي باستعارة أصوات خارجية وتوظيفها ضمن الأفكار الجاهزة في الرواية(33) ..فبعد أحد لقاءات (رافد) بـ(هدى) ينتابه شعور لا يستطيع تفسيره على نحو واضح وعليه يلجأ إلى التجوال في سيارته من دون أن يعرف الى أين

((**شغّلت سيارتي فصدح المسجّل :**

يازلف يتغاوى ويّا الليل بأطراف القصيبة

هاك روحي ال ما غفت والطيف ما مرة حبيبة

هاك جرحي الما تعطب وانت عطابة ولهيبة))(34)

وفي موضع آخر من الرواية نستمع الى أغنية(غارلي بارلو) عن طريق أذن (هدى)وهي في طريقها الى المدرسة ((**وفي طريقي الى المدرسة ، كان صوت "غارلي بارلو" يتسرب هادئاً إلى أذني فينعش حواسي وأعصابي** .

((Now Im deep inside love and stil breathing

(35)She is holding my heart in her hand))

هذه الأغنيات تسللت إلى الرواية متنوعة غير أن بعضها قديم يعود الى حقبة السبعينيات من القرن الماضي ، ولكنها إذ تتنزل في نص روائي تُشحن بطاقة متجددة وتلمَع فتكتسب ألقاً وبريقاً جديدين . وهي تكتسب شرعية تواجدها في النص لأن الحدث الرئيس يتمثل في الحاجة الى هكذا تعابير توجز التجربة الإنسانية في الرواية وكتعبير عن الهوية بأبعادها المختلفة ولا سيما الهوية الملتبسة التي لا تستطيع أن تحدد انتماءها . ومن ثم فهي أقوال تتخذها الشخصيات مجناً للإفصاح عن موقفها من كل مايجري من حولها ولا سيما قضية الهوية المهددة بفعل عوامل كثيرة .

وفي مجرى الأحداث يطلعنا الراوي العليم بكل شيء على أدق التفاصيل فإذا هو ينفذ الى قرارة نفسه ليكشف عن مشاعره وانصهار تجربته الفردية في التجربة الجماعية التي نمت الشعور بالغربة والضياع والإزدواجية في زمن الهجرة والظروف الصعبة التي تعصف بالبلاد ، يقول :

((**حملت اختلافي فوق رأسي وآثرت أن أبتعد وأنزوي . وعذاب تميزي يمتص من شخصيتي الكثير ، وانطوائي يمتص منها أكثر ..**

ليتني كنت في وطن أملكه ، أفرض فيه شروطي وأقصي كل من يتهمني بالاختلاف . أن أكون أنا السيدة فيه .. فهذا وطني ، وأنا أقرر .. أنا أتحكم ، وأنتم يامن هناك لا يعجبني اختلافكم هذا الذي تظهرونه فاغربوا عني

لكنني لست كذلك

أنا التي عشت جل حياتي أشتهي وطناً دافئاً ، وابتغي عمراً جديداً أعيش فيه ذلك الوطن))(36)

إن المفصح عنه في هذه الرواية أكثر من المسكوت عنه وقد أوشك السرد الواقعي أن يتحول الى تسجيل أمين لما يدور في الواقع ، إذ يحدد النقاد علاقة النص الروائي بالمرجع بما يسمى بـ(الإرجاع الشفاف) وهو الحد الذي ((يغدو فيه النص ، غالباً ، نسخة حرفية لمرجعه ... واضعاً النقاط على حروفها ومسمياً الأشياء بأسمائها))(37) من ثم يصبح النص الروائي على هذا النحو ((مصنعاً للحقائق))(38).

إن النص الروائي كلام ومن حيث هو حقيقة لغوية لا يمكن له أن يجسد حقيقة الأشياء المادية . ومهما التبست أحداث الرواية بالواقع فإنها تبقى معادلاً فنيا للواقع المعيش . فهي أحداث تعيد إنتاج الواقع بعد تمحيصه في الفكر والوجدان ومن ثم يخرج الواقع في صورة حقيقية أخرى تعكس قراءة الذات للظواهر والأشياء والأحاديث(39)

لا شك أن الشخصية عندما تدخل في نص ما تتحول الى علامة نصية بالأساس فتشحن بدلالات جديدة ، ولكن النماذج المطلقة من الشخصيات التي أدرجت في الرواية ضعيفة القدرة على حجب كائنات بشرية وجغرافية ، وعموماً تبقى هذه الشخصيات مزيجاً من الماهية بين ما هو واقعي وجمالي(40) الأمر الذي يفضي الى طرح السؤال حول حظ الجوانب الجمالية في هذه الرواية وكيفية استخدامها في طرح سؤال الهوية والانتماء

لقد تخللت الرواية وسائط فنية صاغت للمهجر صوراً ساعدت على تبين موقف الشخصيات منه وبالتالي طرح قضية الهوية بقوة .ففي كل يوم تمر به (هدى) في أحد الشوارع تواجه الإهانة والسخط إذ يعبر الأجنبي عن حقيقته وموقفه حيال المهاجرين العرب تقول : ((**عندما أمشي في شوارع كوبنهاغن الخالية وأقابل سكراناً أو حشاشاً يشتمني ويطلب مني بكلمات تترنح بين شفتيه مغادرة البلد لأنه ليس ببلدي .. عندما يحدث مثل هذا معي ، يثقل ضميري بمشاعر المهانة والسخط من حياتي بأكملها .. ويؤنبني بشدة لأني لم أجرؤ على الرد ولو بكلمة واحدة أعيد معها شيئاً من كرامتي التي هدرت وهي تتراقص على شفتي سكران**))(41) فدلالة هذا المقطع السردي تكمن في موقف الدنماركي الذي أثار بدوره تساؤلات حول الهوية الانتماء .

وعلى هذا النحو كان الكلام في الرواية ينحو من حين إلى آخر إلى الترميز بالأشياء (42) للدلالة على الشعور الضاغط على قضية الهوية والانتماء . وهذا الأمر يتضح أكثر في هذا المقطع السردي الذي تحكي فيه (هدى) قصة أصحاب الأرض الأصليين وظروف التواصل معهم ، فتقول : ((**هذه الأرض ، إرث الـ"فايكينغ" قراصنة البحر القدامى ومروّعي أوربا في القرون الوسطى ، أهلها الأصليون هم من يملك شمسها وهواءها وسحر طبيعتها .. فإن هم رضوا لنا مشاركتهم في إرث جدودهم أصحاب الانتصارات الخاطفة فليس لنا إلا أن نشكر لهم ذلك ونعيش معهم بسلام ، وهذا ما ينتظرونه منّا**))(43) فما صورة قراصنة البحر التي لانخالها إلا رمزاً للاختلاف بين طبيعة هؤلاء القوم والمهاجرين الذي قد يدفع أحياناً نحو البحث عن سبل العيش المشترك .

وفي موضع آخر من الرواية ينقل لنا الراوي أنموذجاً مما يعرض عادة في شاشات التلفزة من إعلانات تصور بعض المنتجات فوظف أحدها لتصوير معادلة غير متكافئة بين الأجنبي المتطور والعربي المتخلف ، وهي مبنية على الخلفية الفكرية القائلة بتطور الغرب ((**ماذا يعلم العرب عن**

الدنمارك سوى أنها تقدم لهم منتجات الألبان ودعاية زبدة "لورباك" حيث يتحلّق رجال بستر حمراء ووجوه أشد احمراراً حول بقرة يدللونها دلالاً بشرياً لتقدّم لهم "زبدة الرفاهية من الدنمارك".)) (44) فالشخصية هنا لم يكن لها من خيار سوى الاكتفاء بالفرح المصطنع والتعبير عن الحاجة إلى الانتماء الحقيقي والشعور بوجود الأشياء في حياتها حتى بات مجرد إعلان عن منتج إثبات لوجودها وكينونتها.

فهذا الشكل الفني استحدثته الكاتبة من مادة موجودة (الإعلان التلفزيوني) لترمز بها إلى ما يحدث للمهاجرين العرب الذين يبحثون عادة عن جذورهم . فوجدت في هذا الاعلان دلالات منغرسة في الذاكرة الثقافية قامت باستثمارها على الوجه الذي ارتضته .وعلى هذا النحو بدت معظم الشخصيات في الرواية مسلوبة الإرادة عاجزة عن الفعل نظراً إلى بعدهم عن فعالية الأحداث فيكتفون بالفرجة على مايجري من أحداث جسام تغير الواقع ، بينما يبدو الرواة متشنجين يحدثون القارىء عادة بما يضطرب في دواخل الشخصيات التي قلما تتكلم .

الخاتمـــــة

إن تجربة حوراء النداوي في الرواية حديثة العهد ، تعتمد على الوضوح وفضح المستور فإذا هي تنطلق دائما من المرجع الواقعي أثر أشياء تشاهدها أو وقائع شهدتها فتحول جميع ذلك بعد أن تمرره في الفكر والخاطر إلى عمل سردي لا يخلو من السبغ الفني والبحث عن أشكال تعبيرية جديدة أو معدلة .

وإذا ما أخذنا بعين النظر زمن كتابة الرواية أدركنا ما يؤطر بنيتها السردية بالحزن لما فيها من خيبات وتوترات ومضايقات وتتبعات ومصائر مؤلمة ، وكأن الرواية عندها لا يستقيم لها عود إلا إذا كانت معبرة عن قلق ما مصدره الواقع والسؤال عن الهوية والانتماء في المهجر . فقد بدا هذا الأجنبي في الرواية متألقاً ،قوياً ، ساطعاً ، وفي المقابل بدت الذات عاجزة باهتة، مضطرة إلى البحث عن سبل الوصول إلى هوية واضحة المعالم والمرجعيات تعزز لديها الشعور بالانتماء . ومع ذلك لم تخل من بعض السمات التفاؤلية .

إن السفر مع هذه الرواية هيّن ليّن لأن السارد فيها التزم فيها بالوضوح وبدور الدليل المترفق بالقارىء فإذا هي رواية ليس فيها من (وعثاء القراءة) إلا ما يتصل بتقمص السارد لدور الشاهد على الواقع، والحرص على تلوينها ببصمات العصر من جهة مساءلة الذات والهوية الثقافية . ومن ثم فهل تصبح هذه الرواية بعد زمن تاريخاً مكتوباً بإسلوب سردي نظراً إلى وضوح بصمات الحقبة التاريخية التي كتبت فيها ؟ هذا هو السؤال الأبرز الآن .

الإحالات

1- ينظر جماليات العنوان وفلسفة العنونة ، محمد صابر عبيد، مجلة الأسبوع الأدبي ، العدد (835)،2002 : 270 .
2- ينظر سيميائية العنوان ،شادية شقرون ، منشورات جامعة بسكرة ، 2000 : 270
3- تحت سماء كوبنهاكن ، حوراء النداوي ، دار الساقي ،بيروت ،2010 : 46
4- طرائق تحليل القصة ، الصادق قسومة ، سلسلة مفاتيح ،دار الجنوب للنشر ،تونس،2000 :37
5- واقع الذات والعلاقة مع الآخر ، ناجي التباب ، مجلة قصص ، العدد(123) ،2005 :62
6- الرواية : 19
7- الرواية : 34
8- الرواية :207
9- الرواية :208
10- الرواية :249
11- طرائق تحليل القصة ، الصادق قسومة : 102-103
12- الرواية : 83
13- الرواية : 85
14- الرواية : 192-193
15- الرواية : 24
16- الرواية : 24
17- الرواية 51
18- تفاعل الثقافات ، تزفتان تودروف، تر: مجموعة من الباحثين ،مجلة فصول ، العدد(2) المجلد 12، 1993 .: 225 .
19- مسألة الهوية (العروبة والإسلام والغرب) ، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ط 3 ،2006 :38 .
20- الرواية : 7
21- الرواية : 26
22- الأقليات المسلمة في الغرب مشكلة التعايش والاندماج (السويد أنموذجاً) ، ابراهيم العبادي ، مركز دراسات فلسفة الدين ، بغداد ،2010 : 198 .
23- الرواية : 75
24- الرواية : 89
25-الرواية : 59
26- الرواية :54
27- الرواية : 48
28- الرواية : 73
29- الرواية : 81
30- الرواية : 260
31- الرواية :284
32- الرواية :37

33 – ينظر عنف المتخيل الروائي في أعمال اميل حبيبي ، سعيد علوش ، مركز الإنماء القومي ،بيروت ،دت : 23 .

34- الرواية : 227

35- الرواية : 199

36- الرواية : 98

37- مقاربة الواقع في القصة المغربية من التأسيس إلى التجنيس ، نجيب العوفي، المركز الثقافي العربي ، بيروت الدار البيضاء ، 1987 :208

38- المصدر نفسه : 656

39- نقلاً عن واقع الذات والعلاقة مع الآخر : 90

40-ينظر الرواية والتاريخ ، محمد طرشونة ، مجلة علامات في النقد ،ج 28، 1998 : 121

41- الرواية : 110

42- نقلاً عن واقع الذات والعلاقة مع الآخر : 91

43- الرواية : 51

44- الرواية : 24 .

مكتبة البحث

1- الأقليات المسلمة في الغرب (مشكلة التعايش والاندماج السويد أنموذجاً)، ابراهيم العبادي ، مركز دراسات فلسفة الدين ، بغداد ، 2010 .

2- تحت سماء كوبنهاكن ، حوراء النداوي ، دار الساقي ، بيروت ، 2010 .

3- سيميائية العنوان ، شادية شقرون ، منشورات جامعة بسكرة ، 2000 .

4- طرائق تحليل القصة ، الصادق قسومة ، سلسلة مفاتيح ، دار الجنوب للنشر ، تونس ،2000 .

5- عنف المتخيل الروائي في أعمال اميل حبيبي ، سعيد علوش ،مركز الإنماء القومي ، بيروت ،دت

6- مسألة الهوية (العروبة والإسلام والغرب) ، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط3 ، 2006 .

7- مقاربة الواقع في القصة المغربية من التأسيس إلى التجنيس، نجيب العوفي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت – الدار البيضاء ، 1987 .

الدوريات

1- مجلة الأسبوع الأدبي ، العدد(835) ، دمشق ، 2002 .

2- مجلة علامات في النقد ، ج28 ، 1998 .

3- مجلة فصول ، العدد(2) ، المجلد (12) ، 1993 .

4- مجلة قصص ، النادي الثقافي ، تونس ، العدد(132) ، 2005 .

Abstract

Poetic narrative and imagination in the novel under the sky Copenhagen's Hura Naddawi

The one who motivated the study of this novel from this angle is entitled first, and the urgency of the writer in more than one place where that attest to its age scripted and time believe certificate, and aims to digging in Khvaya time to Bouh secrets .

And it seems logical to start the study of the following assumptions: How Ask identity in the context of their relationship to the reality of life in the Diaspora? Is it a novel such as literature, who are lining social events information and facts that historic Fiktadha us to review the prevailing perception that work just narrative fabric of imagination and pure fabrication? In parallel with this will live up to what extent this novel is realistic to imaginary? What share of the revelation of the report? These are some of the questions that we will endeavor to seek to answer and the other through the examination of the

The experience of Hura Naddawi in the novel fledgling, based on clarity and expose the hidden If she starts always reference the real impact of things you see or facts witnessed turned all after that pass it in thought and Khater to work a narrative is not without Sbg technical and search for forms of expressive new or modified.

If we take into consideration the time of writing the novel we realizedwhat frame structure narrative sad because of the disappointmentsand tensions, harassment, and traces the fates of painful, as if the novel then is not correct her promises unless they are expressingconcern that comes from reality and the question of identity and belonging in the Diaspora. It seemed that the foreign novelscintillating, strong, bright, contrast seemed incapable of self pale,compelled to search for ways to reach a clear identity landmarks andreferences enhance their sense of belonging. However not withoutsome features optimistic